جامع التواريخ

تأليف

رشيد الدين فضل الله الهمذاني

تاريخ خلفاء چنگيز خان

من أوكتاى قاآن إلى تيمور قاآن

نقله إلى العربية

الدكتور

فؤاد عبد المعطي الصياد

أستاذ بجامعة عين شمس

وجامعة قطر

راجعه وقدم له

الدكتور

يحيى الخشاب

عميد كلية الآداب

بجامعة القاهرة سابقاً

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت ص.ب ٧١٩

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٣

مقدمة
بقلم الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب

هذا جزء هام آخر من كتاب جامع التواريخ للمؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، ينقل عن الفارسية إلى العربية حسب الخطة التي وضعناها لهذا السفر في مقدمتنا لأول قسم ترجمناه منه ، وهو « تاريخ هولاگو » (مايو ١٩٦٠) .

ترجمه الزميل الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد . وأعلم أنه عاكف الآن على ترجمة ما تبقى من هذا الكتاب حتى يتم بذلك إخراج جامع التواريخ إلى لغتنا العربية ، ويوضع تحت أنظار الباحثين والدارسين .

نشر النص الفارسي المستشرق الفرنسي بلوشيه Blochet عام ١٩١١ ضمن مجموعة جب التذكارية G.M.S.، وهو يتناول أبناء چنگيز خان وأحفاده الذين حكموا في غير إيران :

أوگتاي ، جوجي ، چغتاي ، تولوي ، كيوك ، منگو ، قوبيلاي ثم تيمور .

(٢)

في هذا الجزء يذكر رشيد الدين كثيرا من تقاليد المغول ونظمهم ، فهو يتحدث عن إسناد العرش إلى أحد أبناء چنگيز بعد وفاته ، ويقول ، إن العرش ظل شاغرا سنتين بعد وفاة چنگيز ، وأن الأمراء خشوا إذا ظل الحكم

للأمراء في ولاياتهم دون وجود الخان الأعظم ، أن تحدث فتنة أو يخرج على الدولة عدو لها . فأخذوا يتشاورون في الأمر وجاء الأمراء شطر المعسكر الرئيسي ، واجتمع مجلس الشورى المغولي « قوريلتاي » وبدأت الشورى في موضوع من يخلف چنگيز . وجرى العرف عند المغول أن يقوم أصغر الأبناء مقام أبيه ، وكان تولوي خان أصغر هؤلاء . وقد لقب في عهد أبيه بألقاب « يكه نويان » و«الغ نويان »و« نوكار»أي الأمير الأول والرجل الذي يوثق به كل الثقة . ولكن الأمراء رأوا مخالفة هذا العرف ، وإسناد العرش إلى أوكتاي عملا بوصية چنگيز الذي لم يرد إعمال عرف المغول ولم يُقْبِل أوكتاي على العرش بل ذكر أن الأخ الأكبر والأعمام والأخ الأصغر تولوي كلهم أولى منه بهذا المنصب وذكّر الأمراء بتقليد المغول الذي يقضي بولاية الابن الأصغر . وحينئذ رد الأمراء بأن وصية چنگيز واجبة النفاذ ، وليس لأحد أن يغير وصيته ، فإن أمره مطاع . ويمتثل أوكتاي آخر الأمر لوصية والده ، ويعلن قبوله العرش ، ويتعهد بأن يعمل بمشورة أعمامه وإخوته .

ويصف رشيد الدين طريقة تنصيب الخان فيقول :

« إن الأمراء جميعا رفعوا قلانسهم عن رؤوسهم ، وألقوا بأحزمتهم على أكتافهم . ثم إن چغتاي أخذ بيد أوكتاي اليمنى ، وأخذ تولوي بيسراه ، وأمسك عمه أوتچگين بحزامه ، وأجلسوه على سرير الخانية . ثم رفع تولوي كأسا ، وركع الجميع داخل البلاط وخارجه ، وباركوا المملكة بخانية أوگتاي ، ولقبوه بالقاآن » .

بعد هذا أشار الخان (القاآن) الجديد بإحضار الأموال والخزائن ، وأمر بتفريقها على الناس ، لكل حسب جده واجتهاده .

ويقول رشيد الدين إن الرسم عندهم أن الخان الجديد يأمر بأن تقدم الأطعمة للشعب ثلاثة أيام متتالية بركة على روح الخان الراحل . وهكذا فعل أوكتاي . ثم إنه اختار أربعين فتاة حسناء من بنات الأمراء اللاتي كن يلازمن جنگيز خان ، فألبسوهن فاخر الثياب ، وزينوهن بالجواهر الكريمة ، ثم أركبوهن جيادا أصيلة ، وأرسلوهن إلى روحه .

وقبل أن يلي كيوك خان العرش ، يذكر رشيد الدين أن الأمراء الأنجال والأمراء تشاوروا في الأمر ، ورأوا أن كوتان الذي رشحه چنگيز للخانية مريض ، وأن توراكنه خاتون تميل إلى كويوك ، وأن المصلحة تقتضي تنصيبه على العرش ولكن كيوك أظهر التأني عند القبول حسب الرسم ـ وأخذ يحيل الأمر إلى كل أمير معتذرا بضعفه واعتلال صحته . فلما ألحوا عليه ، قبل بشرط أن تبقى الخانية في ذريته ، فكتبوا عهدا أقروه جميعا .

وفي أيام منكو قاآن بدا الخلاف بين أولاد چنگيز . وكان چنگيز حريصا على أن يبقى الوئام بين أبنائه جميعا حتى لا يظفر بهم العدو .

وبعد وفاة قوبيلاي قاآن، أرسلت الزوجة الكبرى « كوكچين خاتون » إلى ابنها تيمور ليحضر حتى يجلس على عرش أبيه . ولكن أخاه كملا ، وهو أكبر سنا من تيمور ، نازعه في الأمر . فلما اجتمع مجلس الشورى ، وتنازع الأخوان أمامه ، قالت الأم : إن قوبيلاي أمر بأن يجلس على العرش أكثرهما دراية بحكم چنگيز ، وطلبت إلى كل منهما أن يتحدث بما يعرف ليحكم الأمراء بينهما . ولما كان تيمور بليغا فصيحا ، فقد أخذ يشرح الأصول والقوانين الچنگيزخانية بفصاحة . فأيد الأمراء جلوسه على العرش .

وهذا يبين قوة المرأة في العهد المغولي ، وتأثيرها في اختيار الخان ، وكان الخان يختار أربعة من بين أبنائه يسميهم « چهار كولوك » أي الأركان الأربعة، ومعنى « كولوك » الرجل الذي لا يتعب ، الرجل الجلد . وكان تولوي أصغر أبناء چنگيز أحد هؤلاء الأربعة . وكان لقوبيلاي أربعة أولاد هم الأركان الأربعة وهكذا .

وإذا كان أبناء چنگيز المختارين لهذا التشريف من زوجه « بورته فوچين » ، وأبناء قوبيلاي الذين كانوا أركانا من زوجه « چابوي خاتون » ، فإن هذا قد يحملنا على القول بأن أبناء الزوجة الأثيرة عند الخان كانوا ينالون هذا الامتياز .

وكان الاحتفال بجلوس الخان رائعا . يحدثنا رشيد الدين عن جلوس منگوقاآن على سرير الخانية فيقول :

« في اليوم الثاني أقاموا حفلا في خيمة كان الصاحب يلواج قد أعدها وزينها بالأنسجة الحريرية الملونة والمزركشة بالذهب . وهي خيمة لم يقم أحد مثلها من قبل ، ولا شُيد سرادق على نسقها . وقد تربع على العرش ملك العالم واجتمع مع حاشيته وآله كعقد الثريا ، على يمينه إخوته السبعة الأمراء يقفون على خدمته في أدب ، وعلى يساره الخواتين كالحور العين ، على حين كان السقاة ذوو الجوارب الفضية يطوفون بكؤوس القميز (اللبن الحامض) وأباريق الشراب وأكوابه ، وقد وقف بين رؤساء الفرق مقدمهم « منكاسار » في موضع السلحدار كالعبد ، واصطف الكتاب والوزراء والحجاب والنواب ، ومقدمهم « بلغاآقا » كل في مرتبته ومقامه ، وفي خشوع وقف بقية الأمراء خارج السرادق ، كل في موضعه . ودام الاحتفال على هذا النحو أسبوعا . وتقرر لبيت الشراب كل يوم الفا دن من الشراب والقميز ، وللمطبخ ثلاثمائة رأس من الخيل والبقر ، وثلاثة آلاف رأس من الغنم وكانوا يذبحونها على طريقتهم المألوفة (بشق بطونها وانتزاع قلوبها) .

(٣)

وفي هذا الجزء أيضا بيان بالإصلاحات الإدارية والمالية التي أمر بها منكوقاآن . يقول رشيد الدين . إنه اتجه إلى الترفيه عن الرعايا وتخفيف الأعباء عنهم ، فاختار الجد على الهزل ، وترك إدمان الشراب . وقد أمر باسترداد المراسيم والپايزات[1] التي حصل عليها بعض الكبراء في عهود چنگيز ومن خلفوه ، واشترط :

١ ـ ألا يمنح أحد من الأمراء حقا يتعلق بمصالح الولايات قبل استطلاع رأي نواب الحضرة .

٢ ـ ألا يستعمل الرسل الكبار أكثر من أربع عشرة دابّة في تنقلاتهم ، مع تعيين العلف اللازم .

(١) الپايزة لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب رتبة المهداة إليه ، في حجم الكف تشبه الميدالية في العصر الحديث . ينقش على وجهها اسم الله عند المغول واسم الخان المانح وعلامة خاصة (أسمى أنواعها ما كانت تزينه صورة الأسد) . وتهدي الپايزة إلى من يثق بهم المغول من كبار رجال الدولة ، كما أنها تتضمن أمر الخان لسفرائه ، ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من في دولة المغول.

٣ ـ أن يذهب الرسل من منزل للبريد إلى المنزل الذي يليه ، فلا يأخذوا دواب الناس في الطريق .

٤ ـ ألا يستخدم التجار خيول البريد .

٥ ـ أن يعدل المشتركون في التجارة (من الأمراء والأثرياء) مع شركائهم من الرعية ، فلا يكلفونهم فوق طاقتهم .

٦ ـ أن يؤدي كل مكلف ما عليه من الأموال دون مماطلة أو اعتذار .

٧ ـ يستثنى من الرعية طوائف تعفى من الخراج ، وهي طوائف رجال الدين من المسلمين (السادات والمشايخ والأئمة) . ومن النصارى (كبار القسس والرهبان والأحبار) . ومن البوذيين (اللامات المشهورين) .

٨ ـ ويعفى من كافة التكاليف الشيوخ العاجزون عن العمل والكسب .

وحُدد للخراج مبلغ سنوي . وكان الثري الكبير من أهل بلاد الخطا يدفع أحد عشر دينارا . وينقص هذا القدر تدريجيا حسب قدرة المكلف حتى يبلغ دينارا واحدا في السنة . وسرى هذا الحكم على ما وراء النهر . أما في خراسان والعراق فكان الحد الأعلى سبعة دنانير . وتقرر بالنسبة للمواشي أن يدفع من يملك أكثر من مائة رأس من الماشية رأسا عن كل مائة إذا كانت ترعى في أرض الخراج الديواني (قوبچور) ويعفى من يملك أقل من مائة رأس .

(٤)

كذلك يتضح من هذا الجزء الذي نقدم له كيفية معرفة درجات الحكام ، فقد وضع المغول لكل بلد أو ولاية اسما ذا معنى خاص . وتتبين درجات الحكام ومراتبهم من أسماء تلك المدن بحيث لا يحتاج إلى كتابتها في المراسيم ، فهي تبين قدر كل حاكم ، وفي أي مرتبة يجلس في حضرة الخان . ومن كل مرتبة يعرف أي الحكام ينبغي عليه أن يستقبل الحاكم الآخر ، ويركع له تحية واحتراما . وقد سميت المراتب ، وهي تسع على هذا النحو :

المرتبة الأولى : كينك (ولاية عظيمة بها مقر الخان) .
المرتبة الثانية : دو (مملكة بها عرش للخان) .
المرتبة الثالثة : فو (عاصمة ولاية) .

المرتبة الرابعة : چو (مدينة من الدرجة الثانية) .

المرتبة الخامسة : . . .[1] .

المرتبة السادسة : كون (ناحية حربية) .

المرتبة السابعة : هين (مدينة من المرتبة الثالثة) .

المرتبة الثامنة : چين (قصبة) .

المرتبة التاسعة : شون (قرية) .

وجعلوا للوظائف الكبرى ألقابا ، ذكر رشيد الدين منها :

١ - **چينگسانگ** : وهو لقب الأمراء العظام الذين تكون لهم النيابة والوزارة .

٢ - **طايفو** : وهو لقب أمراء الجيش .

٣ - **نكشي** : وهو لقب أمراء التومان (التومان عشرة آلاف جندي) .

٤ - **فنجان** : وهو لقب الأمراء والوزراء ونواب الديوان إذا كانوا من - التازيك (المسلمين) أو الخطا (صينيي الشمال) أو - الاويغور (البوذيين) .

والرسم عندهم أن يكون في ديوان الخان أربعة برتبة چينگسانگ ، وأربعة برتبة فنجان للأقوام المختلفة : التازيك (المسلمين) - الخطا (صينيي الشمال) - الاويغور (البوذيين) - الأركاوون (النصارى) .

ومراتب الحكام على هذا النسق :

١ - چينگسانگ ، ٢ - طايفو ، ٣ - فنجان ، ٤ - يوچنيك ، ٥ - ژوچينيك ، ٦ - سم چينك ، ٧ - سمى ، ٨ - لنچون .

وفي ممالك الخان اثنا عشر ديوانا كبيرا « شينك » .

(٥)

عرف المغول نظام البصمات . ويقول رشيد الدين في هذا الجزء إنه قد

(١) هكذا في النص عند ذكر الإصلاحات العمرانية والنظم الإدارية .

تحقق وثبت بالتجربة أن بصمات أصابع الناس مختلفة عن بعضها ، فكان المغول إذا أقاموا حجة على أحد ، وضعوا ورقة الاتهام تحت إصبعه ، ورسموا خطا عند موضع البصمة حتى إذا ما أنكر ، بصم على ورقة أخرى ، وقابلوها بالبصمة السابقة . فإن كانت مطابقة لها ، عجز عن الإنكار .

وكان المتهم يمر بستة أنواع من المحاكم هي : ليشه ، لوشه ، چيبون ، توچنيون ، زوشتائي ، سنويشه . وبعد فوات المتهم بهذه الدرجات الست من القضاء ، يعرض أمره على الديوان الأعظم ، ديوان الخان ، واسمه « شينك » . وفي محكمة هذا الديوان يقضي له أو عليه وفقا لفرمان الخان .

وإذا كان المذنب أميرا ، فإنه حين يدخل على الخان ، ويوضع على كاهله باب الخيمة مقلوباً إشعارا له بالذلة والمهانة .

(٦)

ويتضح من هذا القسم من جامع التواريخ أن رجال الدين عامة كانوا يتمتعون برعاية خاصة في عهد المغول . فرشيد الدين يحدثنا عن إعفاء المسلمين والنصارى والبوذيين من الخراج . وحين يتحدث من منكوقاآن يقول : إنه اختص المسلمين بالرعاية وميزهم عن أهل الأديان الأخرى ، ويضرب مثلا على ذلك ما حدث في عيد الفطر عام ٦٥٠ (١٢٥٢) حين حضر القاضي جلال الدين محمود الخجندي وجماعة من المسلمين إلى باب الخان ، فخطب جلال الدين فيمن معه ، وأمهم للصلاة بعد أن تلا الخطبة باسم الخليفة ، ودعا فيها لمنكوقاآن ، وأثنى عليه . فأمر هذا بمنحة « العيدية » تكريما له فأعطوه أكياس الذهب والفضة والألبسة الثمينة .

وفي عهد قوبيلاي كان ابن السيد الأجل البخاري وزيرا . ويذكر رشيد الدين قصة إخلاصه ووفائه للقاآن ، فظل لديه معززا مكرما ، ولم تلحقه نكبة ، وإنما توفي بانقضاء الأجل وهذا من النوادر . ثم يتحدث رشيد الدين عن وزارة أحمد البناكتي .

وفي إمارة تيمور، كان ابن السيد ناصر الدين حفيد السيد الأجل يشغل وظيفة رئيس الفنچانية .